فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وان تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لي بها ولد أعتمد عليه، وأسند ملكها إليه، ورحل إلى الزرقا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينها، ونواحي بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز إليه لاشفاقه عليه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك المصرية، ولما سمع تقي الدين هذا الخبر نبا ونفر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعة، وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش، قد جمع من قبل الجيوش وسار إلى بلاد برقة فملكها، وهزته الأمنية للنفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى إفريقية وهو يكتب أبدا إلى مالكه الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة ويقول إن البلاد سائبة، فلما تجدد لتقي الدين ماتجدد، وتمهد لعمه العادل ماتمهد، عاد له ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومالت إليه عساكر مصر لبذله، وقدم مملوكه بوزبا في المقدمة، فلما انتهى الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لجاج تقي الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسار معه عمه العادل، فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان، وأما الملك الظاهر فسيره السلطان إلى حلب وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي الدين في آخر شعبان، وتلقاه السلطان وخيم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحب به ودخل دمشق، وعاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملوكه زين الدين بوزبا فإنه رتب له عسكر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحب المغرب فأخذه مأسورا، ثم أغزاه مع الغز في ثغر من الثغور فألفاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتب الفاضل إلى تقي الدين:« سبب هذه الخدمة مااتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التماس السفر إلى الغرب، والدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي ماأندفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهب الله هذه النعمة، وقد كان الشمل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا والله ماانقطعت، يامولانا إلى أين ومالغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد، أوفي شكوى من عدم، كيف نختار على الله، وقد اختار لنا، وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا، وكيف ننتجع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقب الرأي وانظر في أواخره
فطالما اتهمت قدما أوائله

لازال مولانا يمضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: إعلم يامولاي أن السلطان قد أمرنى أنِ أسير في خدمتك إلى مصر، وأ نا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، ووالیا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة

بـالعين المباركـة، وخرج النـاس إلى لقـائه في بكرة السبـت تاسـع جمادى الآخرة، وصعـد القلعة ضاحـي نهاره، وفرح الناس به فـرحا شديـدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العـزيز والعادل فإن السلطان قرر حـالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويـأمره بـالوصـول الى الشام، فشـق ذلك عليه حتى ظهـر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى بـرقة، فقبح ذلك عليـه جماعة من أكـابر الدولة، وعـرفوه أن عمه السلطـان يخرج من يـده في الحال، والله يعلـم مـايكون منـه بعـد ذلـك، فـرأى الحق بعين البصيرة، وأجـاب بـالسمع والطـاعـة، وسلـم البلاد، ورحـل واصـلا إلى خـدمة السلطـان، فسار السلطـان الى لقـائه، فلقيه بمـرج الصفر، وفـرح بوصـوله فرحا شـديدا، وذلك في الثـالث والعشرين من شعبـان، وأعطاه حماة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمـم ذلـك،ودخـل بها يـوم الأربعـاء السـادس والعشريـن مـن شهـر رمضان، ودخـل الملك الأفضل على زوجتـه بنت نـاصر الدين محمـد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومـن كتـاب فـاضلي إلى السلطـان:« الملـك العـادل والملـك المظفـر المذكـوران مـاهما أخ وابـن أخ بـل هما ولـدان لايعـرفـان إلا المولى والـدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيـت كرقعة الشطرنج فيه صغـار وكبار كـالبيـادق والرخـاخ، فلا يقنـع كـل واحد منهما إلا طـرف يملكه، وأقليم يتفرد بـه، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيـه صدره الواسع، وجوده الذي مانظـر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينـس قول عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه:« مـروا القرابـة أن يتزاوروا ولايتجـاوروا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمـر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عـارفا»، وفي غـد ماليـس في اليوم، وللـه اقدار، ولها أمـد، وقد رزق اللـه مولانا ذرية تـود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولـو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة:« تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم»[٣٤] طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفت منا قلوب وأنفس
ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلموا أني من الصبر مفلس
ظننتم بعيني أنها تألف الكرى
فهلا بعثتم طيفكم يتجسس
وليس لقلبي في السرور تصرف
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه
وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف مناظر
يقول دليل الدل عندي أقيس
إذا درست ألحاظه السحر أصبحت
رسوم اصطباري درسا حين تدرس
ولم أنس أنسي بالحمى رعى الحمى
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس
لحى الله أبناء الزمان فكلهم
صحيفته أودى بها المتلمس

ولـولا ابتسـامـات المظفـر بـالنـدى
لما راق نفسي صبحـه المتنفـس
جلـت شمـس لقياه الحنـادس بعـدمـا
عـرتنـا وهـل يبقى مـع الشمـس حنـدس
وصـار بـه هـذا الـزمـان جميعـه
نهارا فما للنـاس ليـل معسعـس
إذا صـال فـا لمفلـول ألـف مـدرع
وإن جـاد فـا لمبـذول ألـف مكيـس
وليـس بمغبـون على فضـل رأيـه
ويغبـن في الأمـوال منـه ويبخـس
إذا أطلـق الملـك المظفـر في الـوغـى
اعنتـه فـالشمـس بـالنقـع تحبـس
فـداك ملـوك لا يلبـون داعيـا
وكلهـم عـن دعـوة الحق يخنـس
تشكـى إليـك الغـرب جـور ملـوكـه
فـاشكيتـه والجور بـالعـدل يعكـس
سيهـدى إلى المهـديـة النصر والهدى
بهديكـم فيهـا وتـونـس تـؤنـس
رددت كـراديـس الفـرنـج وكلهـم
لـدى الأسر في غـل الصغـار مكـردس
وبيضـت وجـه الـديـن يـوم لقيتهـم
وأبيضكـم مـن أسـود القصر أشـوس
أفـاد دم الأنجـاس طهـر سيـوفكـم
ومـا يستفـاد الطهـر لـولا التنجـس
شمـوس ظبـى تغـدو لها الهام سجـدا
فللـه نصرانيـة تتمجـس
وكـم كفـى الاسـلام سـوءا بملككـم
كفيتـم على رغـم المعـاديـن كـل سـو

ولا يفتـــح البيـــت المقـــدس غيركـــم
وبيتكـــم مـــن كـــل عـــاب مقـــدس
لهم كـــل يـــوم في جهـــاد مثلـــث
إذا نصروا التـــوحيـــد في ء مخمـــس
إذا مـــا تقـــي الـــديـــن صـــال تســـاقطـــت
لأقـــدامـــه مـــن عصبـــة الشرك أرؤس
ومـــا عمـــر إلا شبيـــه سميـــه
شـــديـــد على الأعـــداء ثبـــت عمـــرس

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، ومايتحرك لنا نسيم ولاسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا:يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السراديب، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:

قل لأبي الفضل قول معترف
مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصـ
ـطرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والز
يج هواء وهباء

قلـــــت للسبعـــــــة ابـــــرا
م ومنـــــــــع وعطــــــــــاء
ومتــــــى ينـــــزلـــــن في المـــــــــ
ـــــــيزان يستـــــــولي الهواء
وتثير الــــــرمــــــــل حتــــــى
يمتلي منـــــــــــه الفضـــــــــاء
ويعـــــــم الأرض خســــــــف
وخــــــــــراب وبـــــــــلاء
ويصير القـــــــــاع كالقـــــــــــ
ـــــف وكـــــالطـــــود العـــــراء
وحكمتـــــــم فـــــأبــــــى الحا
كــــــم إلا مـــــــا يشـــــــاء
مـــــــا أتــــــى الشرع ولا
جـــــاءت بهذا الأنبيـــــــاء
فبقيتـــــــم ضحكـــــــة تضـــــــ
ـــــــحك منهــــــا العلماء
حسبكـــــم خــــزيــــا وعــــارا
مــــــاتقـــــــول الشعـــــراء
ثـــــم مــــــا أطمعكـــم إلـــى الــــــ
ـــــــحكم إلا الأمـــــــراء
ليـــــت إذ لم يحسنـــــوا في الـــــ
ــــدين ظنـــــا ومــــا أســــاءوا
فعلى اصطــــــــرلاب بطـــــــ
ـــليموس والـــــزيــــج العفــــاء
وعليـــــــــه الخزي مـــــا
جـــــــــادت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال تـوفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبـد الجبار النحوي، وكـان آية في النحـو ثقة عالما صـالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنـة جاء نعي أتابـك محمد بن أتابـك إيلدكز المعـروف بالبهلـوان، وهـو الذي كـان نـزل على خلاط في العـام الماضي، وكانت حيـاته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعـده تلك الممالك، واختربت أصفهـان وإلى اليوم مـن سنة أربـع وتسعين ماوضعـت الحرب أوزارها، وتـولى بعده أخوه قـزل أرسلان، فأزال مهـابة الملك السلجـوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعـدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قـال:واشتغل السلطـان في بقيـة سنة اثنتين وثمانين بـدمشـق بالصيـد والقنص والانتهـاز فيه لبوادر الفرص، وكـان يركب إلى تل راهـط للصيد بالبـزاة والشواهين مع ممـاليكه الخواص الميـامين، وله شاهين يجري كـأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صـاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجـاز وعد صيـده عرقـوبا، فطلبتـه من السلطـان، فقال: أنـت للقلم والـدواويـن، فمالك والبـزاة والشـواهين؟ فقلـت: يكون في ملكـي وكـل مايقنصـه يأمر لي به المولى، وهـذا أربح لي وأنفع وأولى، فقـال: نعم، فلما أصبـح سير لي سبـع عشرة قطعـة مـن طير وحجـل، وقـال: هـذا صيـد شاهينـك في طلق واحد على عجـل، فملكت ذلك الشـاهين خمس ست سنين والسلطان يصطـاد به ولي قنصـه، وله مطلعـه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتـة ملاحظـا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلـك المنائح، فيالله دره من سلطـان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعـاد مزحها جدا، واعتـده لي حقامعدا، فـدون حقه على مثلـه أن يؤسف، ومـن حقنا بعده أن نتلوا(يا أسفي على يوسف)[٣٥].

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، ومالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبدأ بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولايحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الـراوندان، وقـد سلمهـا إلى علـم الديـن سليمان، ثـم مضـى إلى خدمـة السلطان.

قـال ابن القـادسي: وقـدم الحاج في عـاشر صفر، فـأخبروا أن سيـف الاسلام أخـا صلاح الديـن ملك مكة وضرب الدنـانير فيها باسـم أخيه، ومنـع مـن قـولهم حـي على خير العمـل، وشرط على العبيـد أن لايـؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتـى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بـالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصـل الخبر إلى بغـداد بقتـل البهلـوان، وأن القتـال وقـع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأمـوال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقـي الأمر على ذلك مـن سابـع محرم إلى ربيع الآخر، فـاحصوا من القتلى أربعـة آلاف رجل وسبـع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقـام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكـان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعـد الفتنة التي وقعت بها، ومعـه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والـرساتيق بالقتـل والصلب، وصادرهم وأشير على قـزل بأن يلزم أهـل البلد سبعين ألف دينـار، فقال لـه الشحنة: أهل البلـد فقراء، فقال بعـض المصالحة لقزل: مـانأخذ إلا من الأغنيـاء، فوثب عيـار فقتل المصلحـي، وكان العيـار متعلقا على قـاضي البلـد، فوكـل الشحنة بـدار القاضي، فجاء ابـن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـه إخراج الموكلين بـه وتحالفا على إخـراج الشحنة مـن البلد، وأن يقطعـوا خطبة السلطـان الذي نصـب قزل، ففعـل ذلك في سابـع شوال، ثـم كثر القتـل في البلد فكل من في قلبـه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجـل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحـاب ابن الخجندي، وكـان الحريق والنهـب واحراق الدور في أصحـاب القاضي، وجـرى القتال يوم عـرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعـايش، وخربت الأسواق ووقع الغـلاء، ومات الناس

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخوف، وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

obeikandl.com

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته وفوضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص،(٣٦) فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطماعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يمارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري ابن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه:« كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لايحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لايرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

- ٨٤٨٩ -

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجلته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمرا من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشرى، ونحن في نواحي الكرك والشوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولاأكبر، ولاأكرث للكفر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا:(ولله جنود السموات والأرض)(٣٧).

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلابا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الأ لوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون في النقب في برج فهدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتطر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)[٣٨] وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)[٣٩] وبتنا والجنة معروضة،والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، ومااللغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤلئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأ بت عشرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأججج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظماءى ومالهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبى، وفرشتهم على الربى، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومالانوا، وثبتوا على ماكانوا واستقبلوا واستقتلوا واستحلموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطين، حين رأونا بهم محيطين، فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام، ثم استحر الحرب، واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، ولما شاهدوا الصليب سليبا، ورقيب الردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنوا بالضرب الدراك، فما برحوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملون، وللوثوب يخفون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجبر الاسلام بكسرهم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلى قال: ماهناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ماهناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ماأعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامتثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسر، والنجح الأدر، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم مادام

فرسه سالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى ماستبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الحبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الآناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى:(ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)(٤٠).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وماألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هـذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنـة الأمم عـن حصره وعده، وأمـا مـن أسر فلم تكـف أطناب الخيـم لقيـده وشـده، ولقد رأيـت في الحبـل الـواحـد ثلاثين وأربعين يقـودهـم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهـم حارس، وهناك العتاة عناة، والعـداة عـراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولـوا الأثـرة عثـرى، والقـوامـص قنـائص، والفوارس فـرائس، وغـوالي الأرواح رخـائص، ووجوه الـداويـة عوابـس، والرؤوس تحت الأخامـص، فكم أصيـد صيد، وقائد قيـد وقيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك،وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبـوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهـو الذي إذا انصـب وأقيـم ورفع سجـد لـه كـل نصراني وركع، وهـم يزعمـون أنه من الخشبـة التي يزعمـون أنه صلـب عليها معبودهـم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالـدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيـدهم الموعود، فـإذا أخرجتـه القسوس، وحملته الـرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهـم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسـه التصرف، وأخـذه عنـدهـم أعظم مـن أسر الملـك، وهـو أشـد مصاب لهم في ذلـك المعترك، فإن الصليب السليـب مالـه عوض، ولاهم في سواه غرض، والتألـه له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر لـه جباههم، وتسبـح لـه أفـواههـم، يتغـاشون عنـد إحضـاره، ويتعـاشـون لإبصـاره، ويتـلاشون لإظهـاره، ويتغاضـون إذا شـاهدوه، ويتـواجدون إذا وجـدوه، ويبذلـون دونه المهـج، ويطلبون به الفـرج، بل صاغـوا على مثله صلبـانا يعبـدونها، ويخشعون لها في بيـوتهم، ويشهدونها، فلما أخـذ هذا الصليـب عظم مصـابهم، ووهت أصلابهم، وكـان الجمع المكسـور عظيما، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخـراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صـح الكسر، وقضي الأمـر، وتمكـن النصر، وسكـن البحـر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بما وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدم بداية مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك، وماسلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشيا، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بماء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول الملك الإبرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه، فقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى

المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الأيدي ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وخيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بمالها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، ومايقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طب البرية، وعسكره قد طبق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولايقلعان عن المعاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر، فتقدم بإحضار كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لايسمح به، وأنه يضن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبى وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله ومايعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ماالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولاتحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكل على الله عازما، وجاز الأردن جازما، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشه، ووقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

obeikandl.com

فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشترا، فلقيهم السلطان

وأكرمهم، ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل، ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة وجه العدو، ونازل طبرية وزحف عليها، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها، فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولاينجيهم إلا الله، وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ماقدره، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين(وكان حقا علينا نصر المؤمنين)[٤١]، وكان القمص ذكي القوم

وألمعهم،فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاسبتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال : مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الـذي تسقيه، وإلا أنا مـاسقيته، وكـان على جميـل عادة العـرب وكريـم أخـلاقهـم أن الأسير إذا أكـل أو شرب من مـاء مـن أسره أمـن، فقصـد بـذلك الجري على مكـارم الأخـلاق، ثم أمـر بمسيرهـم إلى موضـع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عـاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعـد الملك في الدهليز واستحضر البرنـس أرناط، وأوقفه على ماقـال، وقال: ها أنا انتصر لمحمـد صلى الله عليه وسلم، ثـم عرض عليه الاسـلام فلم يفعـل، ثم سل النمجـاة وضربه بها فحـل كتفه، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النـار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملـك قـد أخـرج على تلـك الصورة لم يشـك في أنـه يثنـي بـه، فاستحضره وطيـب قلبه، وقال: لم تجر عـادة الملوك أن يقتلوا الملـوك، وأما هذا فـإنه جاوز حـده فجرى ماجـرى، وبات الناس في تلـك الليلة على أتم سرور، وأكمـل حبور، ترتفع أصـواتهم بالحمد لله والشكـر له والتكبير والتهليـل، حتى طلـع الصبح في يـوم الأحـد، فنزل رحمه الله على طبريـة، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكـر محمد بن القادسي في تـاريخه أنه ورد في هذه السنـة كتب إلى بغـداد في وصـف هـذه الـوقعة، منهـا كتـاب مـن عبـد الله بـن أحمد المقدسي يقول فيـه:« كتبت هذا الكتاب مـن عسقلان يوم الثلاثـاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»وفيـه :«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التـي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الـدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمـع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليـوم الذي كنـت أنتظره، وقـد جمع الله لنا العسـاكر، وأنـا رجل قـد كبرت، ومأأدري متـى أجلي، فاغتنمـوا هذا اليـوم وقاتلـوا لله تعالى لامـن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكـان رأي أكثرهم لقاء الكفـار، فعرض جنده ورتبهم وجعـل تقي الدين في الميمنـة ومظفر الدين في الميسرة، وكـان هو في القلـب، وجعل بقيـة العسكـر في الجناحين، ثـم سـاروا على مراتبهـم

حتى نزلوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار، وكان عسكر الكفار على صفورية، فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقيهم، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمي، فاقتلع المسلمون منه فوارس، وقتلوا خيالة ورجالة، فانحاز المشركون إلى تل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفا، وقيل ثلاثة وعشرين ألفا، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلا، وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلة من طريق مصر، ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمون:« إن مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الأفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر:« وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت
ثغورا بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملـــوك الكفـــر حتـــى تـــركتـــه
ومـــا فيـــه عـــرق عـــن قـــوى النفـــس ينبـــض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان:« ليهـن المولى إن الله قد أقام به الـدين القيم، وإنـه كما قيل أصبحت مولاي ومـولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليـه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيـا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والـرؤوس إلى الآن لم ترفع مـن سجودهـا، والدموع، لم تمسح من خدودها، وكلما فكـر الخادم أن البيع تعود وهي مساجـد، والمكان الذي كان يقـال فيه إن الله ثالـث ثلاثة يقـال اليوم فيـه: إنه الواحـد، جدد لله شكرا تارة يفيـض من لسانه، وتـارة يفيض من جفنه، وجـزا يوسف خيرا عن إخـراجه من سجنه، والمماليـك ينتظرون أمر المولى، فكـل من أراد أن يدخـل الحمام بدمشـق قد عـول على دخول حمام طبريـة:« تلك المكـارم لاقعبان مـن لبن» وذلـك الفتح لاعمان واليمـن، وذلك السيـف لاسيف ابن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يـذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نـابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يـــا يـــوم حطين والأبطـــال عـــابســـة
وبـــالعجـــاجـــة وجـــه الشمـــس قـــد عبســـا
رأيـــت فيـــه عظيـــم الكفـــر محتقـــرا
معفـــرا خـــده والأنـــف قـــد تعـــس
يـــاظهـــر سيـــف بـــرى رأس البرنـــس فقـــد
أصـــاب أعظـــم مـــن بـــالشرك قـــد نجســـا
وغـــاص إذ طـــار ذاك الـــرأس في دمـــه
كـــأنـــه ضفـــدع في الماء قـــد غطســـا

مـــازال يعطـــس مـــزكـــومـــا بغـــدرتـــه
والقتـــل تشميـــت مـــن بـالغـــدر قـــد عطســـا
عـــرى ظبـــاه مـــن الأغماد مهـــرقـــة
دمـــا مـــن الشرك ردإهـــابـــه وكســـا
مـــن سيفـــه في دمـــاء القـــوم منغمـــس
مـن كـــل مـن لـم يـــزل في الكفـــر منغمســـا
أفنـــاهـــم قتلهـــم والأسر فـــانتكســـوا
وبيـــت كفـــرهـــم مـــن خبثهـــم كنســـا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبـــت على الأردن ردنـــا مـــن القنـــا
ردينيـــة ملـــدا وخطيـــة ملســـا
حططـــت على حطين قـــدر ملـــوكهـــم
ولم تبـــق مـــن أجنـاس كفـــرهـــم جنســـا
ونعـــم مجال الخيـــل حطين لم تكـــن
معـــاركهـــا للجـــرد ضرســـا ولادهســـا
غـــداة أســـود الحرب تعتقـــل القنـــا
أســـاود تبغـــي مـــن نحـــور العـــدا نهســـا
أتـــوا شكـــس الأخـــلاق خشنـــا فلينـــت حـــ
ـــدود الرقـــاق الخشـــن أخـــلاقهـــا الشكســـا
طـــردتهم في الملتقـــى وعكستهـــم
مجيـــدا بحكـــم العـــزم طـــردك والعكســـا
فكيـــف مكســـت المشركين رؤوسهـــم
ودأبـــك في الإحســـان أن تطلـــق المكســـا
كسرتهم إذ صـــح عـــزمـــك فيهـــم
ونكستهـــم إذ صـــار سهمهـــم نكســـا
بـــواقعـــة رجـــت بها الأرض جيشهـــم
دمـــارا كما بســـت جبـــالهم بســـا

بطـــون ذئاب الأرض صـــارت قبـــورهـــم
ولم تـــرض أرض ان تكـــون لهم رمســـا
وطـــارت على نـــار المواضي فـــراشهـــم
صـــلالا فـــزادت مـــن خمودهـــم قبسـا
وقـــد خشعـــت أصـــوات أبطـــالها فما
يعـــي السمـــع إلا مـــن صليـــل الظبـــي همسـا
تقـــاد بـــدأمـــاء الـــدمـــاء ملـــوكهـــم
أســـارى كسفـــن اليـــم نطـــت بها القلسـا
سبـــايـــا بـــلاد الله مملـــوءة بها
وقـــد شريـــت بخســـا وقـــد عـــرضـــت نخسـا
يطـــاف بها الأســـواق لا راغـــب لها
لكثـــرتها كـــم كثـــرة تـــوجـــب الـــوكســـا
شكـــا يبســـار أس البرنـــس الـــذي بـــه
تنـــدى حســـام حـــاســـم ذلـــك اليبســـا
حســـا دمـــه مـــاض الغـــرار لغـــدره
ومـــا كـــان لـــولا غـــدره دمـــه يحســـى
فللـــه ممـــا أهـــدى يـــد افتكـــت بـــه
وأطهـــر سيفـــا معـــد مـــا رجســـه النجســـا
نسفـــت بـــه رأس البرنـــس بضربـــة
فـــأشبـــه رأسي رأســـه العهـــن والبرســـا
تبـــوغ فـــي أوداجـــه دم بغيـــه
فصـــال عليـــه السيـــف يلحســـه لحســـا
بعثـــت أمـــام أمـــة النـــار نحـــوهـــا
أمـــامهـــم أرنـــاطهـــا ذلـــك الجبســـا
ولله نـــص النصر جـــاء لنصلـــه
فـــلا قـــونســـا أبقـــى لـــرأس ولا قنســـا
حكـــى عنـــق الـــداوي صـــل بضربـــة
طـــريـــر الشبـــا عـــودا بمضرابـــه حســـا
أيـــوم وغـــى تـــدعـــوه أم يـــوم نـــائل
وأنـــت وهبـــت الغـــانمين بـــه الخمســـا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها ريا ويا حسنها مرسى

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم
يتذامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر
فهناك لم ير غير نجم مقبل
في أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذي من جيشهم لم يحترم
ومن الذي من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت
بالسبي بالثمن الأخس الأحقر
سقت المماليك الكرام ملوكهم
كأسا به سقت اللئيم الهنفري
وعجمت عود صليبهم فكسرته
وسواك ألفاه صليب المكسر
أغلى الأداهم من أسرت وأرخصت
بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها
بك فهو داع دعوة المستنصر
لا يعدمنك المسلمون فكم يدا
أوليتهم معروفها لم تنكر
آمنت سربهم وصنت حريمهم
ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما أن رآك الله إلا آمرا
فيهم بمعروف ومنكر منكر

متـــواضعـــا الله جـــل جـــلالـــه
وبـــك اضمحلـــت سطـــوة المتكبر
لم يخل سمـــع مـــن هنـــاء مهنـــىء
للمسلمين ومـــن سماع مبشر
واستعظـــم الأخبـــار عنـــك معـــاشر
فـــاستصغـــروا مـــا استعظمـــوا بـــا لمخبر
مضـــت الملـــوك ولم تنـــل عشر الـــذي
أوتيتـــه مـــن منجـــح أو مفخـــر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبريه:

جلـــت عـــزمـــاتـــك الفتـــح المبينـــا
فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا
رددت أخيـــذة الاســـلام لما
غـــدا صرف القضـــاء بها ضمينـــا
وهـــان بـــك الصليـــب وكـــان قـــدمـــا
يعـــز على العـــوالي أن يهونـــا
يقـــاتـــل كـــل ذي ملـــك ريـــاء
وأنـــت تقـــاتـــل الأعـــداء دينـــا
غـــدت في وجنـــة الأيـــام خـــالا
وفي جيـــد العـــلا عقـــدا ثمينـــا
فيـــا للـــه كـــم ســـرت قلـــوبـــا
ويـــا لله كـــم أبكـــت عيـــونـــا
ومـــا طبريـــة إلا هـــدي
تـــرفـــع عـــن أكـــف الـــلامسينـــا
حصـــان الـــذيـــل لم تقـــذف بسـوء
وســـل عنهـــا الليـــالي والسنينـــا
فضضـــت ختـــامهـــا قسرا ومـــن ذا
يصـــد الليـــث أن يلـــج العـــرينـــا

لقـــد أنكحتهـــا صـــم العـــوالي
فكـــان نتـــاجهـــا الحرب الـــزبـــونـــا
هنـــاك نـــدى أهـــل الأرض طـــرا
ســـواك ومعقـــل أعيـــا القـــرونـــا
قســـت حتـــى رأت كفـــؤا فـــلانـــت
وغـــايـــة كـــل قـــاس ان يلينـــا
قضيـــت فـــريضـــة الاســـلام منهـــا
وصـــدقـــت الأمـــاني والظنـــونـــا
تهز معـــاطـــف القـــدس ابتهـــاجـــا
وتـــرضـــى عنـــك مكـــة والحجـــونـــا
فلـــو أن الجماد يطيـــق نطقـــا
لنـــادتـــك أدخلـــوهـــا آمنينـــا
جعلـــت صبـــاح آهلهـــا ظـــلامـــا
وأبـــدلتـــك الـــزئير بها أنينـــا
تخال حماة حـــوزتها نســـاء
لموضـــون الحديـــد مقنعينـــا
لبيضـــك في جماجمهـــم غنـــاء
لـــذيـــذ علـــم الطير الحنينـــا

تميـــل إلى المثقفـــة العـــوالي
فهـــل أمســـت رمـــاحـــا أم غصـــونـــا
يكـــاد النقـــع يـــذهلهـــا فلـــولا
بـــروق القـــاضبـــات لمادهينـــا
فكـــم حـــازت قـــدود قنـــاك منهـــا
قـــدودا كـــالقنـــا لـــونـــا ولينـــا
وغيـــدكـــا الجآذر آنســـات
كغيـــد نـــداك ابكـــارا وعـــونـــا
ولما بـــاكـــرتها منـــك نعمـــى
بنـــان تفضـــح الغيـــث الهتـــونـــا

أعـــدت بها الليـــالي وهـــي بيـــض
وقـــد كـــانـــت بها الأيـــام جـــونـــا

فليـــس بعـــادم مـــرعـــى خصيبـــا
أخـــو سغـــب ولا مـــاء معينـــا

فـــلا عـــدم الشـــآم وســـاكنـــوه
ظبـــى تشفـــي بها الـــداء الـــدفينـــا

سهـــاد جفـــونها في كـــل فتـــح
سهـــاد يمنـــح الغمـــض الجفـــونـــا

فـــالمم بـــالســـواحـــل فهـــي صـــور
إليـــك وألحق الهام المتـــونـــا

فقلـــب القـــدس مسرور ولـــولا
سطـــاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا

أدرت على الفـــرنـــج وقـــد تـــلاقـــت
جموعهـــم عليـــك رحـــى طحـــونـــا

ففـــي بيســـان ذاقـــوا منـــك بـــؤســـا
وفي صفـــد أتـــوك مصفـــدينـــا

لقـــد جـــاءتهم الأحـــداث جمعـــا
كـــأن صروفها كـــانـــت كمينـــا

وخـــانهم الـــزمـــان ولا مـــلام
فلســـت بمبغـــض زمنـــا خـــؤونـــا

لقـــد جـــردت عـــزمـــا نـــاصريـــا
يحدث عـــن سنـــاه طـــور سنيـــا

فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق حقـــا
لـــه هـــوت الكـــواكـــب ســـاجـــدينـــا

لقـــد أتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي
وحـــاول أن يســـوس المسلمينـــا

وأن تـــك آخـــراً أو خـــلاك ذم
فـــإن محمـــداً في الآخـــرينـــا

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في المنوم كأني بأرض غريبة لاأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة،ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبويةصلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمـان نهابها، فطـاب لأولئـك نهابها، وجعـل السلطـان للفقيـه عيسـى الهكاري كل مـاكان للداوية من منـازل وضياع ومواضع ورباع، فـأخذها بما فيها مـن غلال ومتـاع، واستخرجـوا الدفـائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكـذلك مماليك الملك الأفضـل وأصحابه، وولاته ونـوابه نبشوا المحـارز، وفتشـوا المراكز، واستبـاحـوا الإهـراء واجتـاحوا الأشيـاء، وكـان السلطـان قد فـوض عكـا وضياعهـا ومعاقلهـا وقـلاعها إلى ولـده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنـواع مااستولوا عليـه من الأموال، ثم قـال: ومن جملة ذلـك أنهم احتاطـوا بغير علمـي على دار بـاسمي، فبـاعـوا منهـا متاعـا بسبعمائة دينـار، وأخلـوها ممـا كـان فيهـاآلات وأذخار، وقلـدوني المنـة في تحصيل تلـك الدار، فـإنها كانت مـن أنفس العقـار، وسلموهـا إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والـذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفـع من آلاتها بعـد خلوهـا بما قيمته سبعـون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنمـوه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فـأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح:وخلى سكان البلـد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركـوها لمن أخـذها، ونبـذوا ماحـووه لمن حواهـا ومانبـذها، وافتقـر من الفرنج أغنيـاء، واستغنى من أجنادنـا فقراء، ولو ذخرت تلـك الحواصل، وحصلـت تلك الـذخائر، وجمع لبيـت المال ذلك المال المجمـوع الوافـر، لكان عـدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجـح المقاصد، فرتعـت في خضرائها، بل في صفـرائها وبيضـائها سروح الأطماع، وطـال لمستحلبها ومستحيلهـا الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة،يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين:« صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا)(٤٢) وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومن جملة البشائر بكسرة حطين:« ولما أحيط بالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السيف(لاعاصم اليوم)(٤٣) واستولى الخذلان عليهم بأسرهم،وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسرهم، ولم يبق لهم باقية، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يطأ من يصل إلى مخيمنا إلا على رممهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولابد أن ندركه فهو مطلوب، وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكرك الغدار، كافر الكفار، ونشيدة النار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا، وسرنا إلى عكا وهي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان، والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث، وعباد الله الصالحون قد وصلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لاتتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده(مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده)(٤٤)».

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا و طبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعا ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملىء بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ماطبت نفسا ولا استحسنت بعدكم
شيئا نفسيا ولا استعذبت لي نفسا
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيــــف يصبـــــح أو يمسي محبكـــــم
وشــوقكـــم يتـــولاه صبـــاح مســـا
عـــادت معـــاهـــدكـــم بـــالجزع دارســـة
وإن معهـــدكـــم في القلـــب مـــادرســـا
وكنـــت أحـــدس منكـــم كـــل داهيـــة
ومـــادهـــانـــا مـــن الهجـــران مـــاحـــدسـا
لماهــدت نـــار شـــوقـــي ضيــف طيفكـــم
قـــريتـــه بـــالكـــرى زار مقتبســـا
ورمـــت تـــأنيســـه حتـــى وهبـــت لـــه
إنســـان عينـــي أفـــديـــه فماأنســـا
أنـــا الخيـــال نحـــو لا فـــالخيـــال إذا
مـــازارني كيـــف يلقـــى مـــن بـــه التبســـا
لهفـــي على زمـــن قضيتـــه طـــربـــا
إذلم أكـــن مـــن صروف الـــدهـــر محترســـا
عســـى يعـــود شبـــابي نـــاضراومتـــى
أرجـــو نضـــارة عـــود للشبـــاب عســـا
وســـادن يفـــرس الآســـاد نـــاظـــره
فـــديتـــه شـــادنـــا لـــلأســـد مفترســـا
في العطـــف لين وفي أخـــلاقـــه شـــوس
يـــالين عطفيـــه جنـــب خلقـــه الشـــوســـا

ومنها في المديح:

إن بـــان لبـــس مضينـــا لاجئين إلى الـــــ
ـــــفتى الحســـام بـــن لاجين بنـــابلســـا
يميـــت أعـــداءه بـــأســـا ونـــائلـــه
يحيـــي رجـــاء الـــذي مـــن نجحـــه أيســـا
ممـــــزق المازق المنســــــوج عثيره
وقـــد محا اليـــوم ليـــل النقـــع فـــانطمســـا

لازلـــت مستـــويـــافـــوق الحصـــان وفي
حصـــن الحفـــاظ ومـــن عـــاداك منتكســـا

وهي طويلـة وقد تقدمت منها أبيـات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيـات عند فتح القدس في مدح السلطان صـلاح الدين رحمه الله.

ومـن كتاب عـن السلطـان إلى سيـف الاسلام أخيـه:« كـاتبنـا أخانـا العادل أن يـدخل بـالعساكر المصريـة من ذلـك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية،كان قـد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قـدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحهـا عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبـت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البـلاد المعينة بعد وهي:

طبريـة. عكا. الـزيـب. معليا. اسكنـدرونـة. تبنين. هونين. النـاصرة. الطـور. صفـوريـة. الفـولة. جينين. زرعين. دبـوريـة. عفـربـلا. بيسـان. سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يـافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. صرفند. صيـدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يـابا. جبل الجليل. مجدل حباب. الـداروم. غزة. عسقلان. تل الصـافية. التل الأحمر. الأطـرون. بيت جبريـل. جبـل الخليـل. بيت لحم. لـد. الـرملـة. قرتيـا. القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكـر ماتخللها من القرى والضياع والأبـراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكـل واحدة من هذه البلاد التي ذكـرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قـال العماد: ومـا أنشأتـه مـن شرح الفتـوح وكتبـت به إلى الـديـوان

وبدأت بقوله تعالى:«(ولقدكتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)[٤٥] الحمد لله على ماأنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهون الأمر الذي ماكان الاسلام يستطيع عليه صبرا، وخوطب الدين بقوله:(ولقد مننا عليك مرة أخرى)[٤٦] فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة، فهو قد أصبح حرا، ريان الكبد الحرا، والزمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد رد ماكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جذيذا حبله، مبيضا نصره، مخضرا نصله، متسعا فضله، مجتمعا شمله، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، مايشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي مالهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيمان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العماد، وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الاسلام، قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، ومايتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدها، وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها، ووصلنا في يومين إلى صيدا إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين، ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر، فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وهي مدينة لطيفة على الساحل، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فأملى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قال: وسلمت بيروت بحضوري، فكان من سبب ابلالي سروري بفتحها وحبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل له فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوها ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقاله، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيده، فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وربح نجاته وغنم، ومضى إليها من تولاها، وانسل منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتح بيروت وتلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فما متع بما ملك وكان كما قيل:« راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا،ثم تعجب وقال: مانرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة، وتبنين، وبيت لحم، والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون، وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كذا قال العماد في كتاب الفتح، وقال في كتاب البرق: ومابرح السلطان مقيما بظاهر عسقلان حتى تسلم المعاقل المجاورة لها، والبلاد المتخللة فيما بينها، فذكر الداروم، وغزة والرملة وتبنين، وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابن شداد: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قصد عسقلان، ولم ير الإشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئا، وكانوا قد ضرسوا من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور — يسر الله فتحها— كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان إلى بعض أهله وفيه:« انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس، وعسقلان ففتحنا قلاعه كلها

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتمام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال:« وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر:« ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال:« ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.